بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 05 يونيو 2018

# الغيرية والتجلي المقدس لوجه الآخر عند ليفيناس

غيضان السيد علي
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

**«ليس الوَجْه شيئًا يُمْكنني أَنْ أُدركه بل هو تجلّ وحالة تَكَشُّف.»**
(إيمانويل ليفيناس)

**ملخص:**

حاول ليفيناس أن يُحرر الذات من وهم الأنانيّة التي تسجن الإنسانيّة في دائرة الخوف من الآخر منعطفًا بتاريخ الفلسفة من الأنطولوجيا إلى الإيتيقا جاعلًا من الإيتيقا الفلسفة الأولى، فوقف في وجه كل فلسفة تنظر إلى الآخر بأنانيّة أو تخضعه لمقولات الكليّة. ويمثل الوجه حجر الزاوية في فلسفة ليفيناس ولحظتها المركزية؛ فالوجه هو ما يحدد هوية الذات وهو التعبير عن التفرد البشري وعن جوهر الإنسان الفردي، ومن خلال الوجه يتم التجليّ المقدّس لله الذي لا يمكن مقاربته إلا بالمعقوليّة الإيتيقيّة، ولذلك رفض ليفيناس حلول اللاهوت في الناسوت وعَدَّهُ تواضعًا يُفْرَض على الكائن الأسمى. وقد عدَّ ليفيناس التجلي المقدس للوجه بمثابة منظور فلسفي يتصدى لتلك النظرة الدونيّة الاحتقاريّة للآخر من طرف الذات، فكان بمثابة رد فعل مباشر لتلك الرؤية الأنطولوجيّة التي سادت معظم تاريخ الفلسفة الغربية، فتمركزت حول الذات، ورأت في الآخر ما يهدد وجودها وأصبح الإنسان ذئبًا لأخيه الإنسان، والآخرون هم الجحيم بعينه. ومن ثم جاء هذا التجليّ ليعيد الآخر إلى دائرة اهتمام الأنا بشكل يجعل الأنا مسئولة بصورة كاملة عن الآخر بل وحارسة له، مؤكدةً على ثقافة الاختلاف والغيرية، وداعيةً إلى العيش سويًا ومنع هيمنة الذات على الآخر. ويناقش هذا البحث هذه الإشكاليّة عبر مقدمة، وستة محاور كالتالي: أولا: الوجه وفينومينولوجيا الغيرية. ثانيًا: الظهور المقدس للوجه. ثالثًا: الوجه وضرورة الحوار مع الآخر. رابعًا: الموت من أجل الأخر. خامسًا: فكرة الله كآخر. سادسًا: وقفة نقدية مع فكرة الغيرية والتجلي المقدس لوجه الآخر. ثم الخاتمة التي تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

## مقدمة:

يعد الفيلسوف الليتواني الأصل الفرنسي الجنسيّة إيمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas (1906-1995) من أهمّ فلاسفة القرن العشرين، وصاحب التأثير الأكثر وضوحًا في فلسفة ما بعد الحداثة، فهو الذي قدَّم فينومينولوجيا phenomenology هوسرل Husserl وهيدجر Heidegger إلى فرنسا، وأعطاها أبعادًا نقديّة وتأويليّة، فكان لها التأثير الجليّ في معظم الفلاسفة الفرنسيين الذين ظهروا في منتصف القرن العشرين، والذين تكونوا فكريًا في الفترة القريبة من الحرب العالميّة الثانية.

وترتكز فلسفة ليفيناس على نقطة محوريّة، حيث إنّها تنطلق من أن الكائن الذي يكون قادرًا على أن يكون غير نفسه، ويحمل مسئولية مصير غير مصيره هو كائن خصب تمامًا. وأنَّ الإنسان في أعمق أعماقه يشعر برغبة في الانفتاح على وجود آخر. ومن ثم تكون الغيريّة هي المسئوليّة عن الآخر، وأنَّ الإنسان ملتزم أخلاقيًا بالدفاع عن حقوق الآخر. الأمر الذي يمكن القول معه بأن فلسفة ليفيناس هي فلسفة القلق بالآخر، حيث تحمل دلالات أخلاقيّة تُعَبّر عن التزام ومسئولية تجاه الآخر.

أمّا الوجه فهو مصطلح ليفيناس الأثير الذي يميز فلسفته؛ حيث يعد الوجه عنده حاملًا للإنسانيّة التي نحن محكومون بها، فالخير محبة، والمحبة وجه، واختيار وحريّة وطيبة، وأننا لا يجب أن نفهم الوجه في شكله الظاهري، بل في المعاني التي يمكن أن يُوحي بها، فإننا عندما ننظر إلى الوجه فإنه يمكننا أن نقرأ الكثير من المعاني التي ربما تعجز اللغة المستعملة التعبير عنها. فالوجه هو الذي يحرّم عليَّ قتل الآخر، إذ لا يمكن لأي شخص قتل آخر، وهو ينظر إليه وجهًا لوجه، فلا تقتلني، أو «لا تقتل أحدًا قط» هي العبارة التي يفرضها تلاقي الوجوه. فجملة «لا تقتلني» التي تعد إحدى الوصايا العشر الذي حملها موسى إلى بني اسرائيل يعتبرها ليفيناس أول رسالة من الممكن أن يُرسلها الوَجْه إلى وجه الآخر.

ولا يعني هذا الاهتمام الليفيناسي بالوجه تجاهل مفردات أخرى مهمة وأساسيّة في قاموس فلسفة ليفيناس، مثل: الآخر، والمسؤولية، والحوار، والاحترام، ولكنها في الحقيقة، يتم استخدامها جميعًا -رغم أهميتها- من أجل الوجه؛ فليس هناك إثبات فلسفي للذات دون الآخر ودون حوار يجمع الطرفين، وتبني قضايا الغير أو الآخر لا يتم بدون تحمل المسؤوليّة الأخلاقية والمبنيّة هي الأخرى بدورها على الحوار، والحوار لا يتم دون الحضور وجهًا لوجه. وهكذا يكون «الوجه» هو المحور المركزي الذي تدور حوله مفردات ليفيناس الأخرى. ولمَّا كان لا يمكن دراسة الوجه بلا دراسة الآخر؛ لأن الوجه في الحقيقة هو وجه الآخر. وفكرة «الآخر» التي تعد فكرة أصيلة في التاريخ الفلسفي تعكس كيف تأرجح الفكر الغربي بين الأنانيّة والغيريّة. تلك الأنانيّة التي وضحت بشكل جليّ في الفلسفة الحديثة عند توماس هوبز T. Hobbes الذي رأى «أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، ونجدها فيما بعد عند جان بول سارتر J. P. Sartre الذي

اعتبر «الآخر هو الجحيم بعينه»، إلّا أننا سنجد تلك الصورة تختلف تمامًا عند ليفيناس الذي رأى أن الفرد يحيا من أجل «الآخر»، وأنَّ الآخر، عندما يواجهني (أي يكون وجهه لوجهي)، فإنه يلزمني إلزامًا أخلاقيًا تجاهه، وأمام الوجه أطالب نفسي دائمًا بالمزيد.

فقداسة الوجه تكمن في تلك الهيبة أو الرهبة التي يشعر بها الإنسان عند الالتقاء بوجه الآخر، فعندها تشعر الذات بحريتها؛ حيث إنَّ الحرية عند ليفيناس ليست سوى تجاوب الذات مع الآخر لنيل الاحترام. وهكذا تدور فلسفة ليفيناس حول الموجود الإنساني، فقد استبدل ليفيناس سؤال الأنطولوجيا بسؤال الوجود، وكما أنزل سقراط قديمًا الفلسفة من السماء إلى الأرض حسب مقولة شيشرون، فإنَّ ليفيناس سلك بطريقة معاكسة لهيدجر Heidegger الذي قدَّم سؤال الوجود على سؤال الإيتيقا، فكانت الإيتيقا عند ليفيناس بمثابة الفلسفة الأولى.

## أولاً - الوجه وفينومينولوجيا الغيرية:

يعد مصطلح «الوجه» أو الـ (Le visage) حسب الكلمة بالفرنسية، هو المميز لفلسفة «ليفيناس»، فلكل فيلسوف مصطلحه الذي يميز فلسفته، كأن نقول «الجدل» عند هيجل، و«الواجب» عند كانط، و«الحدس» عند برجسون، كذلك يكون «الوجه» عند ليفيناس. أو كما يصفه الفونسو لينجز A. Lingis، والذي يعد من أكبر المهتمين بفلسفة ليفيناس "إنّ مفهوم الوجه هو بمثابة اللحظة المركزيّة في فينومينولوجيا ليفيناس"[1]. لذلك، نجده يخصص للوجه مساحة كبيرة في مؤلفاته، فعلى سبيل المثال، نجده يخصص «للوجه» و«ما بعد الوجه» القسم الثالث من كتابه "الشمول واللامتناهي Totality and Infinity" والمعنون بـ "المظهريّة والوجه Exteriority and the face"، والذي ينقسم إلى مبحثين كبيرين؛ الأول منهما يحمل عنوان "الإحساس والوجه sensibility and the face"، بينما يحمل الثاني عنوان "الأخلاق والوجه ethics and the face"، حيث ينقسم هذا المبحث بدوره إلى ثمانية مباحث فرعية تدور في معظمها حول الوجه، بلّ يشغل "الوجه" مساحة كبيرة أيضا في كتابيه "الأخلاق واللامتناهي Ethics and Infinity" و"حرية صعبة Difficult Freedom".

ولا يقصد ليفيناس بالوجه، ذلك المظهر الذي يتجلى أمام المشاهدين، فنقول هذا وجه "جميل" وهذا وجه "قبيح" أو ما يمكن أن نسميّه "فينومينولوجيا الوجه"؛ لأنَّ الوجه عند ليفيناس ليس ظاهرة مثل تلك الظواهر التي تظهر أمامنا في الوجود، ولا يمكن شرحه بهذه السهولة، فعمق التحليل الليفيناسي للوجه يشير إلى ما يمكن تسميته بـ "ما وراء الوجه"؛ أي إضفاء المعنى لكل ما لا يبدو ظاهرًا على الوجه بشكل مباشر،

1 A.Linges, Translator's Introduction in Collected Philosophical Papers: Emmanuel Levinas(translated by Ap - onso Lingis) Duquesne University press, Pittsburg Pa,1998, P.xxix.

وهنا تختلف الفينومينولوجيا عند ليفيناس عن الفينومينولوجيا عند هوسرل، والتي تنحصر عند الأخير في دراسة ما هو خالص في الإنسان: أي جانب الشعور، فتدرس الأشياء بإحضارها إلى أفق ظهورها المفتوح، أي بالكيفية التي يظهر بها الموضوع أمام الوعي القصدي. ولذلك، فلا يمكننا الحديث عن فينومينولوجيا للوجه عند ليفيناس بالمعنى الهوسرلي أو الهيدجري. ويمكننا القول، إن ليفيناس قد أعطى الفينومينولوجيا توجيهًا أخلاقيًا راديكاليًا، فقدّمها في شكل جديد يمكن أن نطلق عليه "فينومينولوجيا الغيريّة phenomenology of alterity" أو "فينومينولوجيا السلوك الاجتماعي phenomenology sociality"، التي تبدأ من تجربة الوجه (المُحيا)، وتتبع باستمرار بالقرب من الآخر.

يرى ليفيناس أنَّ هناك نزوعًا قويًا بداخلنا لرؤية وجه الآخر، والإحاطة بفعاليته، وتزامنه، وحساسيته، فالوجه يتكلم[2]. لكنَّ ليفيناس لا يقصد بالوجه تلك المظاهر الموجودة فيه كالعينين، الأنف، الجبين، الذقن. إنّك عندما تنظر إلى الوجه يجب أن تدركه ككيان حي كلي، ولا تلتفت إليه وكأنك تنظر إلى شيء ما أو ملامح منفصلة؛ لأنَّ مثل هذا النظر لن يجعلك قادرًا على أن تقيم علاقة اجتماعيّة مع هذا الوجه، بل سيشيئ العلاقة فيجعلها كعلاقة شيء بشيء آخر[3]. ومن ثمّ يمكننا فهم قوله: «فليس الوجه شيئًا يمكنني أن أدركه، بل هو تجلي وحالة من التكشف»[4]. أو قوله «إن الوجه ليس مرئيًا، إنّه ما لا يمكن احتواؤه، ويقودكم دوما إلى الما وراء"[5]. وهنا يفسح المجال لفهم أعمق للوجه يتمثل في تلك المعاني التي يمكن أن يوحي بها الوجه؛ لأنّه -في نظره- الجزء الأكثر انكشافًا والأكثر عريًا أمامنا، فإننا أمام الوجه يمكننا أن نقرأ فيه كل المعاني التي لا يمكن أن تستطيع لغة ما التعبير عنها بنفس الفصاحة، فالوجه إذن «خطاب يتكلم بوجه» وهو مصدر كل المعاني الظاهرة[6]. إنّه (أي الوجه) هو الذي يبدأ كل خطاب، وكل إمكانيّة للخطاب، ذلك الخطاب الذي يعبر - بشكل دقيق- عن تلك المسؤوليّة، التي ستقوم عليها تلك العلاقة الأساسيّة بين الوجه كآخر وبين الأنا[7].

فالوجه هو الذي يُحرّم عليَّ قتل الآخر، وإنَّ الآخر عندما يواجهني (أي يكون وجهه لوجهي)، فإنه يلزمني إلزامًا أخلاقيًا تجاهه[8]، وأمام الوجه أطالب نفسي دائمًا بالمزيد[9]، بل أن فيليب نيمو Philippe

2 E. Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority, trans. By Alphonso Lingis ,the Hague Martinus N - jhoff, U.S.A, 1979, p.207.

3 E. Levinas, Ethics and Infinity Conversation With Philippe Nemo- trans. By Richard Cohen, Duquesne Unive - sity Press, Pittsburg Pa,1985, P.85-86.

4 E. Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority,. p.194

5 E. Levinas, Ethics and Infinity- Conversation With Philippe Nemo, P. 86

6 E. Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority,. p.189

7 E. Levinas, Ethics and Infinity- Conversation with Philippe Nemo, P. 86.

8 E. Levinas, Totality and Infinity- an essay on Exteriority,. p.207.

9 E. Levinas, Difficult Freedom, Essays on Judaism, trans. By Sean Hand ,the Johns Hopkins university press,Paltimore, 1997, p.294.

Nemo في حواره مع ليفيناس يقول: "إنَّ يوميات الحروب تخبرنا بأنّه من الصعب قتل إنسان يحدق فينا بعينيه وجهًا لوجه»[10]. وهنا يعلق ليفيناس مُبَيّنًا بأنَّه لا يمكن لأي شخص يلتقي بآخر وجهًا لوجه ثم يقتله، فالوجه دلالة، لكنه دلالة لا سياق لها[11]؛ أي أنَّ الآخر يحمل الكثير من الدلالات الإنسانيّة في وجهه، وذلك سيان أكان في السلم أم في الحرب، وهذا عين ما يقصده بمقولته «دلالة خارج السياق»، فحرمة قتل الإنسان موجودة في الوجه في كل الأحيان، ومع اختلاف الظروف والمواقف، لذلك يقول ليفيناس: «أريد بذلك أن أقول بأن الآخر في استقامة وجهه، ليس شخصًا في سياق، فإننا عادةً ما نمثل شخصًا ما: أستاذًا في السوربون، نائبًا للرئيس في مجلس الدولة، موظفًا في مؤسسة ما، كل ما يوجد في جواز السفر، طريقة اللباس والظهور، وكل دلالة في المعنى العادي للكلمة، تتعلق بسياق ما: فكل معنى من معاني الأشياء يرتبط بعلاقته مع شيء آخر. هنا يحدث العكس، فالوجه معنى مستقل بذاته، أنت هو أنت بهذا المعنى، يمكن أن نقول إنَّ الوجه ليس مرئيًا. إنَّه مالا يمكن احتواؤه، ويقودكم إلى الماوراء. ولهذا، فإن دلالة الوجه تخرجه من الكينونة، الكينونة المرتبطة بالمعرفة. لأنَّ الرؤية بحث عن التطابق، إنها ما يبتلع الكينونة بامتياز. لكن العلاقة مع الوجه هي في الأساس علاقة أخلاقية: الوجه هو ما لا يمكن قتله، أو على الأقل ما يقوم معناه على جملة: لن تقتل»[12].

فالآخر يعبر من خلال وجهه عن سماحته، وينحدر من خلاله قدر من السمو والإلوهية[13]. «لا تقتلني» هذه هي الجملة التي من خلالها يعبر لنا الوجه عن رفضه لكل عملية قتل تجاه الآخر. وهذه الجملة يعتبرها ليفيناس أول خطاب يمكن أن يدور بين اثنين، ويذهب إلى أبعد من هذا ويعتبرها أمرًا موجهًا من الوجه، فإنَّ للوجه هيبة وجلالًا ورهبةً كتلك الرهبة التي يشعر بها العامل أمام رب عمله، في الوقت الذي يرفض فيه كل محاولات التملك والاحتواء رغم عريه وفقره وبؤسه[14]، إنّه يعبر عن حالة إنسانيّة وأنطولوجيّة ما.

ومن ثم يقرر ليفيناس أنّ ملاقاة الآخر تسمح للأنا بأن تكتشف وجهه، والوجه هو حقيقة الآخر وهويته، ومن خلال وجهه يمكننا أن نرى في آن واحد ظاهرتين متناقضتين؛ ألا وهما فقر الوجه وعوزه من ناحية، وتعالي الوجه وقداسته من ناحية أخرى؛ لأن الوجه في عريه يقدم لي فاقة الفقير والغريب واليتيم والأرملة، في حين تحمل فكرة اللامتناهي التي تُقَدم من خلال الوجه ذاك العلو والنبل والقداسة والتعالي.

10 E. Levinas, Ethics and Infinity- Conversation with Philippe Nemo ,P. 86.

11 Ibid, P. 86.

12 Ibid, P. 86.

13 Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority,. p.262.

14 Levinas, Ethics and Infinity- Conversation with Philippe Nemo, P. 86.

وهذا يشير إلى أنَّ تصور ليفيناس للوجه تصورًا مركبًا. فاكتشاف وجه الإنسان الآخر في فقره وتعاليه، يجعلني أعي، وفي آن واحد إمكانيّة القتل وعدمها، فالعلاقة بالوجه هي علاقة على الفور أخلاقيّة، فالوجه ما لا نستطيع قتله، أو هو على الأقل يحمل عبارة «لا تقتل أبدًا»، فالوجه يحمل في تعالي كيانه ولا تناهيه ما يقاوم فعل القتل. فنظرة الآخر بمقاومتها القتل تشل قدرتي وتجرد إرادتي من سلاحها، حيث يصبح فعل الأمر «لا تقتل» ليس قاعدة بسيطة للسلوك، بل مبدأ الخطاب نفسه، ومبدأ الحياة الروحية، وهو الأمر الذي يفرض نفسه عندما ألتقي بالآخر وجهًا لوجه، فعندما تلتقي بوجه الآخر، فإنك تتعرف عليه أو تعرّفه ذاتك، وعندها تتعاطى الوجوه الكلام «فالوجه يتكلم»، وهذا التعاطي الذي يتطلبه الكلام هو بالتحديد العمل بلا عنف[15].

فالوجه يكشف عن المشاعر الداخلية للكائن البشري، وهو من يتيح إمكانية التحاور ويبدأ الحوار، فثمة علاقة وثيقة بين الوجه والحوار[16]. والحوار أو الكلام هو فعل الإنسان العاقل الذي يتخلى عن العنف لكي يدخل في علاقة مع الآخر. فمن خلال الحوار المقدم من قبل الوجه يتحمل الأنا مسئولياته تجاه الآخر، فيصبح الوجه في حالة من الثراء والغنى رغم فقره وبؤسه، فالمنطوق طريقة لتحية الغير، وهنا يصبح من الصعب البقاء في حالة صمت أمام وجه يتكلم، فلابد من رد التحية ومن ثم إقامة علاقة ما.

**ومن ثم يمكننا تصور مفهوم «الوجه» عند ليفيناس على طريقتين:**

**الأولى:** الوجه الشكلي العاري المنكشف، الوجه كشكل أو بوصفه جزءًا من شكل، أو أنه في سياق وتساوق مع الأشكال المحيطة به. كوجه المدير أو رب العمل وما يمكن أن تحمله نظراته وقسمات وجهه وإيماءته للعمال أو المرؤوسين، كأن نقول وجه يحمل علامات القبول والرضا ووجه يحمل الكراهية والحقد والغضب، هنا يتجلى معنى الوجه داخل سياق ما.

**الثانية**: الوجه اللاشكلي، أو ما وراء الوجه كشكل، أي الوجه خارج أي سياق كان، حيث لا يمكن التفكير فيه انطلاقًا من علاقته مع الأشياء، إنَّه ليس شيئًا محدودًا بالزمان والمكان الذي يشغله في سياق عالم الأشياء، فهو وجه يحمل دلالات أخلاقية لكل البشر على السواء، فلكي نفهم الوجه فلابد من الغوص في معانيه العميقة وإنسانيته اللامتناهية.

إذن يشير مصطلح «الوجه» عند ليفيناس إلى كل تلك العلاقات التي يمكن أن يعقدها الوجه مع الوجود العقلي، فهو الجهد الفوري الفلسفي المباشر الذي يضفي المعنى لكل ما يبدو ظاهرًا بدونه؛ لأنه لو ظهر

15 E. Levinas, Difficult Freedom, pp.6-10.

16 E. Levinas, Ethics and Infinity- Conversation with Philippe Nemo, P. 89.

لأصبح شيئا مرئيًا مثل الأشياء المرئية الأخرى؛ أي أن ليفيناس يتجه بتفكيره اتجاها معاكسًا للوجود؛ ذلك لأنّه يقرّ بتفوق ما هو بسبيل أن يوجد، على الموجود فعلًا. ويتمثل هذا «الما هو بسبيل أن يوجد» لذهن ليفيناس، على أنه في جوهره، هو الوجه، الوجه الإنساني، وأما ما نحسه نحن وراء هذا الوجه، وما نعاني منه في تصفحنا له، فإنما هو اللاوجه الإلهي[17].

وهكذا يريد ليفيناس أن يمتحن تجربة الوجه بدون أن يقصيها، انطلاقًا من الأشكال الكاريكاتورية للوجه التي تدعو إلى التأمل في تلك المعاني التي يمكن أن يحملها الوجه. ويدعونا من خلال عبارته الشهيرة «دعوة واستجابة الوجه»، والتي تتردد في أماكن عدة من مؤلفه «الشمول واللامتناهي»، وتمثل جوهر الوازع الأخلاقي عنده، «فالوجه يدعوني، مع عوزه وفقره، ومع ذلك لا يمكنني أن أصمّ أذني أمام هذا النداء... فالوجه يفتح الخطاب الأولي الذي هو التزام أخلاقي»[18]. فالإرادة حرة في تحمل مسئوليتها في شعور يحس بالحب، كما أنها ليست حرة في تجنب هذه المسئوليّة أو تجاهل معنى العالم من خلال الوجه. ومن ثم يمكننا القول بأنَّ هناك دعوة ملحة من ليفيناس إلى دراسة الوجه من الناحية المورفولوجية؛ أي أننا إذا أردنا أن نعرف وجه الآخرين الحقيقي، على الأقل علينا أن نبدأ بمعرفة وجودهم اليومي البسيط، وكيفيّة انفتاحهم على الآخرين داخل نمط الحب، فتجربة الوجه حدث فعلي ملموس يعبر عن الشمول واللامتناهي؛ فالشمول هو شمول الوجه للآخرين جميعهم عبر الحب، وبدون صراع أو عنف. أما اللامتناهي، فهو ذلك الذي يعطينا الحرية والاستقلال في مواجهة وجه الآخر.

وهكذا تبدو مشكلة التضاد الذي يجمع بين الشمول واللامتناهي أعقد المشكلات في فلسفة الوجه؛ فاللامتناهي يأتي دائمًا من أجل إيقاف وحصر الشمول، وهذا لا يعني أنَّه قوة أدائية أو إلهام، وإنما اللانهائي يبقى محافظًا على سموه وتعاليه، وهنا يشير ليفيناس إلى أنَّ الوجه من خلال لقائه بالآخرين يعبر عن اللامتناهي؛ لأنَّ الوجه واللامتناهي ينتظمان في الآخر، إذا لم يكن بالإمكان اقتسام الغموض (غموض العلاقات بين اللانهائي والوجه). وحتى يمكننا فهم وتبسيط وحل هذه المعضلة التي تربط بين الشمول المتناهي من ناحية واللامتناهي من ناحية أخرى في الوجه الإنساني عند ليفيناس، فإننا نقول إن الوجه في إطاره الشكلي أو الوجه في سياق ما يعبر عن الشمول، والذي يمكن احتوائه وتملكه، ولكن الوجه خارج أي سياق ما؛ أي الوجه كخطاب وكتعبير عن الحب وإعطاء الأمان للآخرين، فذلك هو اللامتناهي، ومن ثم يمكننا فهم قول ليفيناس الشهير: «في وجه الآخر تعبير عن سماحته، وينحدر من خلاله قدر من السمو والإلوهية»[19]. فإذا كان الوجه في تركيبه الجسدي والتكويني يعبر عن المتناهي، فإنّه في الوقت ذاته

17 جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة الأب مارون خوري المخلصي، (بيروت: منشورات عويدات، الطبعة الرابعة، 1988) ص 163

18 Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority, pp.16-200- 201-218

19 Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority, p.262.

يعبر عن اللامتناهي من خلال حبه للآخر وانفتاحه عليه، ومن خلال رغبته في رؤية مظاهر الفرحة بادية عليه، ومن خلال خوفه وقلقه عليه، حيث يقول ليفيناس: «في البداية أرغب في اللانهائي وأنطلق منه؛ لأنَّ أساسه هو هذه الرغبة، لكن ليس بمفهوم الرغبة الجسدية (الشهوة) أو الرغبة الجنسية أو الحاجة إلى العيش (الأكل، الشرب ...إلخ)، وإنما الرغبة التي تمثل اللانهائي عند ليفيناس هي الفرحة التي تظهر على ملامح الوجه»[20].

وهكذا يعطي ليفيناس الإنسان من خلال ضعفه، وعري وجهه معنى الإنسانيّة، فوجه الإنسان لا يعطى معنى كالأشياء الأخرى، بل هو دلالة بلا سياق، أو دلالة خارج أي سياق، وهو معنى واحد «أنت هو أنت»، فالوجه هو نفس الدلالة الأولى، لكن عندما يكون الوجه لوجه يمكننا أن نقرأ كل المعاني الأصيلة ونفهمها؛ لأن الإنسان الآخر شريك في علاقتي معه عن طريق اللغة التي تضع الناس في ترابط مستمر وهو جوهر الأخلاق لدى ليفيناس. فالوجه يتكلم ويفيض دائما بالمعاني[21]. اللامتناهية، وحينما يخاطبني يدعوني للتواصل معه[22]، ولكنّه في الوقت نفسه يرفض كل احتواء وتملك[23].

إنَّ وجه الآخر يناديني، وعندها يكون للوجه علاقة مع الرؤية، ورؤية وجه الآخر هي الطريق الأفضل لمقابلة الآخرين، فحجب الوجه يمنع لغة التفاهم ويقتضب الحوار، فالملثم لا يقيم علاقة أبدًا مع الآخر، إنّه يعبر عن الأنا فقط، بل يريد سلب الآخر، حتى لو بدا من هذا الملثم عينيه أو أنفه أو ذقنه...إلخ، فالإنسان -عند ليفيناس- لا يُعرف من خلال شكل أنفه، عيونه، جبهته، ذقنه، وإنما من الإشارات العضويّة التي تظهر على سمات وجهه كاملًا، مما يعني انفراد الوجه عن الأصناف العامة للجسم بعضوية المعنى الذي يتضمنه؛ أي فهم المعنى المتضمن في الوجه.

فالوجه في كل لحظة من خلال تكشفه كاملًا للآخر يحمل احتمالات شتى، احتمال الإخلاص واحتمال الخيانة، فالوجه يقدم من خلال عريه حقيقة من أعلى الدرجات، فمن خلال قداسة الوجه يمكننا أن نثبت الحب والكرم، فالوجه يجلب المغزى الأول the first signification[24]. ومن ثمَّ، فعندما يكون الوجه لوجه الآخر يكون اللامتناهي حاضرًا من خلال المتناهي. هذا هو التفسير المعقول لمشكلة التضاد الذي يجمع بين الشمول واللامتناهي في فلسفة الوجه عند ليفيناس.

20 نقلا عن: بلعز نور الدين، الوجه والإنسانية في الفلسفة الليفيناسية، ص 398

21 Levinas, Totality and Infinity- an essay on Exteriority,. p.297

22 Ibid,. p.198

23 Ibid,. p.194

24 Ibid, p.207

## ثانيًا - التجلي المقدس للوجه:

أما عن قداسة الوجه أو تجليه المقدس the epiphany of the face، فيبقى حديث ليفيناس مطولًا حتى خارج (الشمول واللامتناهي)، فذلك التجلي المقدس الذي يظهر من خلال المواجهة. إنه تجميع مغاير تمامًا للتركيب، فهو يقيم قربًا مخالفًا للقرب الذي ينتظم بفعل تركيب المعطيات، ويربط فيما بينها ضمن «عالم» من الأجزاء داخل الكل[25]. فيخضع الفكر المنتبه إلى الوجه أو بفعل الوجه، إلى اختلاف غير مختزل، فهو ليس فكرًا حول a thought of، ولكنه، وعلى الفور، فكر من أجل a thought for، فهو مغاير لحالة عدم الاكتراث تجاه الآخر، الذي يقطع توازن الروح المساوية له، والتي لا يهمهما أن تعرف أن دلالة الوجه تعتبر بمثابة يقظة أمام الإنسان الآخر في هويته غير المميزة، وأن تتبادل معه بشكل غير مختزل في التجربة وحدها. فالوجه بمثابة انكشاف وافتقار إلى كل تعبير وإلى كل خطاب من الممكن أن يقربه من الآخر، فمن خلال الوجه يصبح الإنسان في حالة فناء واتحاد مع الآخر. مما يجعل موت الآخر موضع اتهام لي وموضع تساؤل، وكأن الأنا قد أصبح مسئولًا عن موت الآخر، بل يصبح مطالبًا أكثر بعدم تركه يموت وحيدًا[26].

ومن هنا تبرز مسئولية الأنا من خلال الوجه عن الآخر غير المميز، الذي تشمله عندما يكون الأنا والآخر في حالة مواجهة أو وجهًا لوجه، فإن الأنا يشعر بمسؤولية تجاه هذا الآخر، والذي أجد نفسي ملزمًا أخلاقيًا بالدفاع عنه وعن حياته واستحالة ترك هذا الإنسان وحيدًا أمام لغز الموت[27]. وتتبلور هذه المسئولية من خلال الحب، ولا يقصد ليفيناس بالحب ذاك الحب بين الرجل والمرأة أو الحب الناتج عن الشهوة، لكنه يقصد ذلك الحب الذي لا تتخلله الشهوة، والذي ترتكز عليه الدلالة الفطرية لهذه الكلمة، فالحب هنا من أجل الحب وفقط، إنه يشبه إلى حد كبير الواجب من أجل الواجب عند كانط، ولذلك يقول: «إنه الحب بلا شهوة، ذلك الذي ترتكز عليه الدلالة الفطرية لهذه الكلمة المنهكة»[28].

وهكذا يعبر حضور وجه الآخر عند ليفيناس عن حالة من الأمان والرغبة في التعاون والمسؤولية الذاتية عن الآخر. فالوجه لوجه ليست دعوة إلى الصراع والعنف، كما ذهبت إلى ذلك وجوديّة سارتر: «الجحيم هم الآخرون»، بقدر ما هي علاقة قبول وحوار وتسامح، وفي هذا القبول بالآخر دون احتوائه في منظومتنا المعرفيّة، فالوجه يقاوم دائمًا التملك والاحتواء[29]، وهنا تكمن إنسانيّة الإنسان. ويُسمّي ليفيناس

25 E. Levinas, Entre-nous or Thinking- of- the- Other, Translated from the French by Michael B. Smith and Ba - bara Harshay, Columbia University Press, New York, 1998, P.185

26 Ibid,. p186

27 Ibid,. p186

28 Ibid,. p186

29 Levinas, Totality and Infinity- An essay on Exteriority, p.262

الالتقاء «بالآخر» بـ«الحدث»، حتى أنه يصفه بـ«الحدث الأساسي». فهو يشكّل، بحسب اعتقاده، التجربة الأهمّ، تلك التي تفتح أوسع الآفاق للحوار والحياة والسلام. وهذا اللقاء، كما يشير هو بداية الخروج من التمركز حول ذاتي، فمجرد وجود الآخر أمامي هو إنكار لكوني أنا مركز كل شيء، ودعوة في الوقت نفسه إلى الخروج من ذاتي والعيش مع الآخر. وعلى خلاف تصور الآخر على أنه ذئب أو عدو متربص بي، والذي طال كثيرًا، ونتج عنه ابتلاع الأنا في الآخر أو ذوبان الآخر في الذات، تحافظ علاقة «وجهًا لوجه» عند ليفيناس علي وجود مسافة مناسبة بين الأنا والآخر، وعلى الانفصال الذي هو شرط الاختلاف، ذلك لأنها ليست دمجًا للذات والآخر في وحدة كلية، حيث لا يمكن هذا الدمج. ومن ثم فهي أيضًا علاقة أخلاقيّة، تستدعي حرية الذات لتوجهها نحو المسؤولية. وهكذا يؤسس ليفيناس في احتفائه بالانفصال والاختلاف والوجه، لذاتية تتحقق كمسؤولية تجاه الآخرين. وهنا تكمن أهمية وخطورة فلسفة ليفيناس بأكملها، إذ إنه يرمي إلى وضع مستقبل الآخر كمسؤولية للأنا. وهذه المسؤولية لا يمكن الهروب منها أو استبدالها أو التنصل منها أو الاستعاضة عنها بأي شيء آخر أبدًا.

ويبدو أنَّ الدرس الأخلاقي الذي يمكن استخلاصه من العولمة اليوم، إذا أردنا، هو: «جعل مستقبل الآخر مسؤولية شخصية». بيد أن مقولة «وجهًا لوجه» عند ليفيناس تحيلنا خفية إلى ما أصبح يعرف اليوم بلغة الجسد - وحسب علوم: النفس واللغة والاتصال... فإن هناك أربع شفرات للتواصل الإنساني، الكلام والصوت (السمع)، والجسد والوجه (البصر). فأنت لا تقنعني بما تقول فقط من كلمات، وإنما بالصوت والوجه والجسد. أضف إلى ذلك، أن اللغة الأبجدية نفسها تستخدم لغة الجسد، مثلما نقول: لم يرف له جفن، غض الطرف، اليد الممدودة بالسلام.... إلخ. فضلًا عن أن الكلمات لا تخرج فقط من فم الإنسان، وإنما من كل جسده، ناهيك عن أن ما يقوله الفم ليس بالضرورة هو ما يقوله الجسد. فالإنسان لا يمكنه أن يختبئ خلف جسده وإن كان بإمكانه أن يتوارى خلف كلامه. وعلاقة «وجهًا لوجه» هي علاقة مباشرة، والمباشرة، ربما كانت، على صلة «بالبشرة» في اللغة العربية[30].

كما يبدو التجلي المقدس لوجه الآخر في أن الله يتجلى من خلال الوجه وليس فيه، فلم يقل ليفيناس أبدًا بحلول اللاهوت في الناسوت، بل رفض ذلك رفضًا قاطعًا، وأعتبر أنَّ فكرة حلول الله في الإنسان لا تبرح أرض الفكر الوثني الذي يبتلع الله في العالم. فإذا كان الوجه الإنساني أثرًا يحضر فيه الله ويغيب، فإنّه لا يصير منتميًا إلى هذا العالم؛ أي إنه لا يمكن الإحاطة به معرفيًا كأية ظاهرة موجودة في العالم، وإنما يمكن الوقوف على حقيقته عن طريق الإيتيقا فقط، حيث إنني أسمع كلام الله وأراه في وجه الآخر من خلال التزامي الأخلاقي تجاهه، وهذا ما نعنيه بالتجلي المقدس للوجه.

30 عصام عبدالله: لا تقتل، http://www.copticassembly.org/showart.php?main_id=1118
وتم الدخول عليه في 2014/3/3. الساعة الخامسة مساءً.

## ثالثًا - الوجه وضرورة الحوار مع الآخر:

إنّ الحوار عند ليفيناس هو أهمّ عمل للوجه، بل هو الأساس لكل العلاقات الأخرى بين الأنا والآخر. فمن خلال الحوار المقدم من قِبل الوجه يتحمل الأنا مسؤولياته تجاه الآخر. وهنا نجد مجموعة من الأسئلة المحيرة التي تؤرق ذهن ليفيناس حول دور الحوار في تحديد العلاقة مع الآخر من خلال الوجه، فيثير أسئلة عديدة منها: لماذا ينبغي علينا أن نتوقف عن النظر إلى الآخر بصفته مجرد شيء ونبدأ في معاملته كشخص ينتمي مثلنا إلى دائرة النوع البشري؟ وهل يقدر الحوار فقط على إزالة سوء التفاهم بين الأنا والآخر؟ أم يجب أن نتعدى ذلك نحو المقابلة والتلاقي وجهًا لوجه؟ وماذا تضيف المقابلة إلى الحوار؟ وكيف تبدأ الذات في التجلي للآخر دون تزييف في لحظة المقابلة والتلاقي؟ وكيف يفعل الآخر نفس الأمر من خلال الوجه الذي يتيح له فرصة التجلي للذات والكف عن الغربة والانطواء؟ وهل يجوز أن نعتبر الوجه الجسر الأخلاقي المنشود الذي يربط بين الذات والغير؟ وعن أي وجه آخر نتحدث؟ وما المقصود بأخر الوجود بالنسبة إلى الذات؟[31].

ومن ثم يمكن القول، إن ليفيناس يحرر الوجه تمامًا من المادة أو أنه يتحدث عن تجليه بعيدًا عن المادة، إذ يمكن له أن يكون أكثر كثيرًا من مجموع أجزائه، فيتحدث عن روحانية الجسد، حيث تبدو العينان مرايا للروح فتعبر عنها بامتياز، بل يبدو الوجه كله معبرًا عن جوانية الإنسان وعالمه الباطني، حيث يمكننا من خلال تفحص ملامح الوجه أثناء الحوار أن نقرأ مالا ينقله الكلام، فإذا كان للسان لغة يتواصل بها، فإن للوجه لغة أخرى أصدق حديثًا وأكثر تجاوبًا وتعبيرًا. ومن ثم نفهم مغزى تلك العبارة التي طالما يرددها ليفيناس في معظم مؤلفاته عن حديثه عن الوجه بقوله: «إن الوجه يتكلم The face speaks»[32].

ومن ثَمَّ، فالوجه يتدخل بطريقة حاسمة في انفتاح الأنا على الغير وفي تحول الغير إلى شرط إمكان إثبات الأنا؛ لأنَّ الآخر عبر وجهه يظهر للأنا، ومن خلال الحوار يقيم علاقة حرة لا يحاصرها الآخر ولا ينكرها بل يشارك في إثباتها وتأكيدها[33]، بل إنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك وجه، ويتميز عن الآخرين بوجهه، بينما سائر الأشياء والكائنات الأخرى ليس لها وجه ولا تتميز عن بعضها البعض بهذه الخاصية؛ لأن لها نفس الملامح والصفات، وبالتالي فالوجه إنساني خالص يحمل قدرًا من القداسة.

---

31 زهير الخويلدي: الأنا وجها لوجه مع الآخر أو ليفيناس فيلسوف الغيرية، على الموقع التالي:
http://alhiwartoday.net/node/6258 (2014/3/3 وتم الدخول عليه في)
كذلك يمكن الرجوع إلى: زهير الخويلدي: معان فلسفية، (دار الفرقد، دمشق، ط1، 2009) ص 19-41

32 Levinas, Totality and Infinity, p.66.

33 E. Levinas, Entre-nous or thinking- of- the- other, P.35.

ولكن يجب أن نراعي أن المحاور عند ليفيناس يطرح نفسه في مواجهة الآخر دون أن تعني المواجهة صداقة وحسن ضيافة، بل قد تكون نظرة حقد وازدراء كما قد تكون نظرة حب واحترام، وبالتالي ينبغي أن نتوقف عن معاملة الآخر كموضوع حتى نستطيع أن نراه على حقيقته، ونقابله مقابلة حقيقية. ويؤكد ليفيناس أن العلاقة بين الأنا والآخر تكون أفضل في حالة الاختلاف منها في حالة المماثلة. ومن ثم فإننا نسمو بقيمة الحب عندما لا نسعى إلى اختزال الآخر في الذات والتطابق معه إلى حد التماهي التام، فمن وجهة نظر أخلاقيّة، نحن نستطيع أكثر حينما نكون اثنين[34].

كما أن الحوار بين الذات والآخر يزيل الكثير من الغموض والالتباس الذي يكدر السلم العام بين الأنا والآخر، فالحوار المتبادل يؤسس للعدالة المنشودة، فالخطاب بينهما يفتح الباب على مصراعيه لتتكشف الحقائق وتتجلي أسس الحق والعدالة، ففي لحظة التلاقي كما يقول ليفيناس «يطرح الوجه نفسه ويطالب بالعدالة»[35]. كما أن وجه الآخر في هذه اللحظة «يعبر عن سماحته ويتجلى فيه قدر من السمو والإلوهية»[36]. وهو ما يعكس إلى حد بعيد فكرة التجلي المقدس لوجه الآخر.

## رابعًا - الموت من أجل الآخر أو الانعطاف الأنطولوجي نحو الأخلاق:

لم يجد الفكر الغربي بدًا من الانشغال بفلسفة الموت بالرغم من أنّه موضوع كريه، مقلق، ومزعج لا يُشجع على التأمل والتفكير عند الكثير من الناس، وأمام هذا القلق وذلك الانزعاج استبدل الإنسان الحديث عن الخلود بالحديث عن الموت، بل إنَّ بعض الفلاسفة آثروا أن يتركوا الاهتمام بإشكالية الموت لعلماء النفس أو علماء الاجتماع الذين لم يكترثوا لمعالجة تلك الإشكاليّة إلاَّ حديثًا. فقد رأت الحكمة الفلسفيّة -في الغالب الأعم- أنَّ التأمل في الحياة أولى من التأمل في الموت. ولذلك، لم يكن موقف ليفيناس من فلسفة الموت أو البحث في طبيعة الموت وماهيته موقفًا غريبًا، بل كان امتدادًا لموقف من سبقه من الفلاسفة؛ فيرفض الحديث عن أي مذهب أخروي، بل ويتساءل مستنكرًا: لماذا نريد اختزال الزمان في الخلود؟ فالزمان هو أعمق علاقة يمكن أن يحياها الإنسان مرتبطا بالإله، أو بعبارة أخرى أعمق فترة يمكن أن يقضيها الإنسان في توجهه نحو الإله؛ لأن هناك ميزة في الزمان قد لا توجد في الخلود، فالرغبة في الخلود هي رغبة في الدوام واستمرارية العيش بذاتنا ووجودنا الذاتي فقط؛ أي أن الوجود في الخلود هو وجود كفرد واحد في حين أن

34 Richard Kearney, States of Mind, Dialogues with the Contemporary Thinkers on the European Mind, Ma - chester University Press, 1995, p.188.

35 E. Levinas, Totality and Infinity, p.294.

36 Ibid, p. 262.

الوجود في الزمان هو وجود بالإله وتوجه دائم إليه، وهذا التوجه لا يمكن أن يكون إلا إذا كنت معنيًا بصفة أخلاقية عن الآخر ومنشغلا به وقلقًا على وجوده وموجودًا من أجله[37].

والموت عند ليفيناس بمثابة لغز كبير، لذلك أكدَّ على عدم ترك الآخر وحيدًا أمام لغز الموت The mystery of death، فالموت عند ليفيناس هو إعلان عن حدث لا تكون فيه الذات هي السيد المسيطر على الحدث، بل إنها تكف عن أن تكون ذاتًا بالنسبة إليه[38]. ويصرّح في مواضع شتى من مؤلفاته أننا لا نعلم عنه شيئًا بالتحديد، وهو على أقرب الاحتمالات حالة يظهر فيها شيء لا يمكن معرفته على الإطلاق، فهو شيء غير قابل للمعرفة أبدًا «غريب عن أي نور»[39].

أما الجدير بالذكر هنا أنّ الفلاسفة لم يفكروا في موت الآخر، بل اهتموا بفكرة موت الأنا، أي من خوف الأنا على ذاتها؛ ولذلك كانت فكرة الخلود هي الحل الذي يضمن للنفس بعض الطمأنينة عند بعضهم. فلم تأبه الأنا أبدًا بمعاناة الإنسان الآخر وبمسؤوليتها تجاه هذا الآخر، أو بالانشغال بحمايته من الموت قدر الإمكان، بل على العكس تمامًا إن الأنا قد دخلت في صراع مع الآخر على طول الفكر الفلسفي، وهو صراع يستمر حتى الموت في إطار جدلية السيد والعبد. ولذلك، كان تناول ليفيناس ومعالجته لإشكالية موت الآخر هو انعطاف بتاريخ الفلسفة كله؛ فكما انعطف في تناوله لفينومينولوجيا الوجه من الأنطولوجيا إلى الإيتيقا، انعطف بمشكلة الموت من القلق بشأن موت الأنا المطروحة بشدة في أنطولوجيا هيدجر إلى القلق بشأن موت الآخر، إنّه انعطاف خالص تجاه الإيتيقا، أو بعبارة أخرى الانعطاف الأنطولوجي نحو الأخلاق.

ففي تجلى الوجه عند ليفيناس تظهر عموميته واستقامته ونزاهته، «فالوجه لا يوجد أمامي بل يوجد فوقي، وعندما ينظر الوجه بشكل جانبي، فإنه يرى الآخر أمام الموت، الذي يَعرض نفسه من خلال تلك النظرة، بينما يطالبني الوجه من جهة أخرى بألا أتركه فريسة للموت بمفرده، وأن تركي له يجعلني شريكًا في موته، ومن ثم يناديني الوجه قائلًا: «لن تقوم بالقتل أبدًا»... ومن ثم تنبثق علاقتي الأخلاقية بحب الآخر»[40]. ويهيمن حق الآخر في الحياة على حق وجودي أنا، ولذلك تصبح الذات عند ليفيناس مَدِينة للآخر أكثر من نفسها. فالذات مشدودة هَوَسِيًا إلى الآخر ومهتمة به إلى الحد الذي يجعل مواظبتها على الكينونة إيتيقًا بلا معنى أصلًا -وهذا بالطبع ما يمكن أخذه على إيتيقا ليفيناس بشكل أو بآخر- بل إن هناك إمكانًا للقداسة والتضحية والاستعاضة عن موت الآخر بموت الذات، عندما يبلغ الأرق والسهاد منتهاه من فرط

37 Richard Kearney, States of Mind, Dialogues with the Contemporary Thinkers on the European Mind, pp.188-189.

38 E. Levinas, Time and the Other [And additional essays], translated by Richard Cohen, Duquesne University Press, USA, 1978, p.70.

39 Ibid, p.71.

40 Richard Kearney, States of Mind, Dialogues with the Contemporary Thinkers on the European Mind, p.189

السهر على حراسة الآخر، وتلك يقظة مضاعفة، ونتيجة هذه اليقظة المضاعفة هي الانتهاء إلى أن الأنا، إنما هي فقط جواب على نداء سابق لها، وفي ذلك تكمن فرادتها واستحالة تعويضها؛ إذ إنَّ كل تصور لإمكان تعويض الأنا في مسئوليتها، إنما يحول هذه المسؤولية إلى مجرد دور يلعب في المسرح، فالأنا مرتهنة بالآخر ورهينة لندائه، ولا يمكن لأحد أن يجيب عوضًا عنها، فالفرادة هي لا نهائية المسؤولية لأجل الإنسان الآخر التي تفرض التضحية بالذات من أجل الآخر[41]. ولا شك أن هذه نظرة يوتوبية مبالغ فيها حتى في عالم اليوتوبيات.

يرى ليفيناس أن موت الإنسان الآخر يجعلني في موضع اتهام؛ أي أنني تخليت متعمدًا عن مساعدة هذا الآخر للنجاة من الموت، فأنا بذلك الفعل إنسان لا أخلاقي، تخليت بمحض إرادتي الحرة عن مساعدة هذا الآخر الذي تركته يواجه الموت وحيدًا، والذي كان من الممكن أن أُمُدَّ له يد العون، لقد تركته يعاني ألم الموت وحيدًا. يقول ليفيناس: «كما لو كان ذلك الموت الخفي الذي يواجهه وجه الغير، كان أمرًا متعلقًا بي أو يخصني، وكأنَّ هذا الموت يراني. إنَّ موت الإنسان الآخر يضعني موضع اتهام، فالأنا بعدم اكتراثها ولا مبالاتها يجعل منها شريكًا في موت الغير، ومن ثمَّ فهي مطالبة دائمًا بتحمل مسؤولية موت الآخر، وعدم تركه يموت وحيدًا»[42].

وهنا يصبح الموت حسب ليفيناس ليس هو الحدث الذي به يفقد الإنسان وجوده، بل هو حدث الإنسان ذاته، والذي يتولد منه، إنَّه وعي إنسان بآخر، يدل على تعالي العلاقة الإيتيقية، حيث يضعني الآخر أمام الموت موضع سؤال ونداء، باعتباره وحيدًا أمامه، الموت هنا سيفرغ من دلالته البيولوجية والأنطولوجية ليتحول إلى معاني أسمى يمكن أن تُنْتَج من رعب الموت ذاته، وتتبلور في المسؤوليّة الذاتية عن الخطر الذي يهدد الآخر، وهكذا تتحول العلاقة مع الموت من إشكال أنطولوجي[43(*)] إلى علاقة إيتيقية بامتياز[44].

وهنا تظهر الإيتيقا كنقيض للعنف، وكممهّد للحفاظ على الحياة، وعدم جعلها في خطر، فالمسئولية الإيتيقية هي تحريم أي فعل عنيف يودي بحياة الآخر، وأن الأنا دائمًا يمتلكها خوف على الغير، خوف يتقدم ذاتيتها، وهذا ما يستوجب الشعور بمدى حاجة الآخر إليَّ، والشعور بإنسانيته قبل الموت، وأن أكون بجواره دائمًا، فهذا هو حدث الوجود عينه[45].

41 مصطفى كمال فرحات، صروف الكينونة بين ليفيناس وهيدغير- حرب الإيطيقا ضدّ الأنطولوجيا، مجلة أوراق فلسفية، العدد (17) القاهرة، 2007، ص 149

42 E. Levinas, Entre-nous or Thinking- of- the- Other, P.186

43(*) يقصد بالموت كإشكال أنطولوجي أنه يتفاوت وجودًا وعدمًا مع وجود الإنسان؛ فإذا وجد الإنسان فإن موته غير موجود، وإذا وجد موته فهو غير موجود.

44 رحيم عمر، فينومينولوجيا الوجه والإيروس عند ايمانويل ليفيناس، رسالة ماجستير غير منشورة، شعبة الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر، 2015-2016، ص 73

45 المرجع السابق، ص 74

كما أنَّ ليفيناس هنا يذكِّر بمسؤولية الأنا عن طريق الوجه الذي يُعِينُ الآخر، ويلتمس مساعدته ويطلبها، فيرى أن تجربة وجه الآخر هي مصدر الشعور الأخلاقي، فوجه الآخر عند «ليفيناس» هو مظهر وجوده الذي يثير فينا المسؤولية عنه وتجاهه، «فقرب القريب هو بمثابة مسؤولية الأنا من أجل الآخر»[46]. والمسؤوليّة هنا كما يقول ليفيناس: «ليست شرطًا قانونيًا باردًا»، وإنما مسؤوليّة ديناميكية حية تنبع من الإلزام الأخلاقي وحده، إنَها المسؤولية عن حياة هذا الآخر واستحالة تركه وحيدًا أمام لغز الموت، هي -أيضًا- التي تدفع الأنا لتقديم كافة العطاءات والهبات أو إن شئت قل التضحيات التي تبذلها الأنا بلا انتظار مقابل، والتي تتمثل في الموت من أجل الغير.

إنَّ الأنا عند ليفيناس لا تحيا منعزلة بل تحيا في جماعة، تتجاوز فيها الأنا الوجود الأنطولوجي لانعزال كل فرد عن الآخر إلى وجود إيتيقي تظهر فيه الأنا مسؤولة أخلاقيًا عن الآخر، وتبدو إنسانيّة الإنسان بقدر ما يبدي اهتمامًا بالآخر وخوفًا عليه. ولذلك يكون الإنساني في هذا الوجود هو الذي يعد نفسه مسؤولًا عن الإنسان الآخر، هو من يتجاوز الأنا لأجل الآخر، وهو أيضًا من يأتي انشغاله وقلقه بموت الآخر قبل الانشغال بالذات، بل هو الموت من أجل الآخر الذي يمثل معنى الحب في مسؤوليته عن الغريب. إنه القلق الليفيناسي الناتج عن حب الآخر، ولكنه حسب عبارة بسكال الشهيرة، والتي يرددها ليفيناس كثيرًا «حب بلا شهوة». ذلك القلق المسؤول عن الآخر الذي يستدعيه الوجه في تجليه المقدس، ليصبح للقلق على موت الآخر أو بعبارة أكثر دقة «الموت من أجله» أسبقيّة على الموت الحقيقي. ولا يجب أن نفهم تلك التضحية من أجل الآخرين عند ليفيناس بنفس المعنى الذي نفهم به الاستشهاد من أجل الآخر بالمفهوم الإسلامي الذي يفترض جزاءً أخرويًا عظيمًا للشهداء؛ وذلك ببساطة لأن ليفيناس لا يعول كثيرًا في مذهبه الفلسفي على الحياة الأخروية، بل إنه يؤكد على قداسة التضحية من أجل الآخر لا لأن هناك حياة أخروية بعد الموت؛ وإنما لأن هناك تفانيًا في التضحية، قداسة في الإحسان والرحمة. ولما لا؟ وهو من أصحاب المذاهب الديونطولوجية في الأخلاق التي لا تنظر إلى نتائج الأفعال. هكذا يكون مستقبل الموت في حضرة الحب، والذي هو بلا شك أحد الأسرار الأصلية للتجلي المقدس لوجه الآخر.

إن فكرة ليفيناس يمكن أن تُلَخص كذلك «الأنا لا يكون إنسانيًا إلا إذا هجر ذاته». فنكران الذات هو ولاء للآخرين؛ فإذا كان هيدجر قد كتب يقول: «الكائن هو الضامن للكائن» فإن ليفيناس قد ذهب بعيدًا في قوله: «يجب أن تكون أكبر من الذات نفسها، وتتجاوز الذات، وذلك بالتضحية من أجل الآخرين»[47]. وبناء عليه لا يصبح الإنسان حارسًا لذاته فقط، وإنما حارس للآخر، الذي يتجلى أثر اللامتناهي في وجهه، فيصبح وجه الآخر أيقونة الإله، أو ما نعني به التجلي المقدس لوجه الآخر.

---

46 E. Levinas, Entre-nous or Thinking- of- the- Other, P.186

47 أحمد إبراهيم، ايمانويل ليفيناس وفلسفة الآخر، مجلة أوراق فلسفية، القاهرة، العدد(33)، 2012، ص 189

## خامسًا - فكرة الله كآخر أو تجلى المقدس من خلال الآخر:

يتجلى الإله عند ليفيناس من خلال وجه الآخر، وفي وجه هذا الآخر نقرأ تعاليم الإله، وأولها على الإطلاق هي «لا تقتل»، ذلك الأمر الإلهي الذي يقرأه المتدينون في الكتب المقدسة، ويقرأه ليفيناس في وجه الآخر. الأمر الذي يعكس طبيعة مختلفة لرؤية الله عند ليفيناس. تلك الطبيعة التي نحاول الوقوف عليها من خلال هذا المحور، والتي يكون مفتاح الدخول إليها هو تقديم الإيتيقا على الأنطولوجيا، وهذه هي كلمة السر في فلسفة ليفيناس، والتي من خلالها يمكن فهم مُرَاد ليفيناس من جعله الأخلاق بمثابة الفلسفة الأولى.

وقد انطلق ليفيناس في معالجته لقضية الإلوهية من هذه النقطة المركزية في تفكيره، أولوية الإيتيقا على الأنطولوجيا؛ حيث إنَّ ليفيناس قد عارض في نقده للشمولية المذهب الهيجلي في سياق هجومه على البنيوية، حيث وصفهما بأنهما ليسا سوى مجرد انتصار للعقل النظري، كما عارض أنطولوجيا هيدجر الذي أنكر الميتافيزيقا الغربية وأكدّ على أولوية الوجود. ولذلك، يمكن القول -بمعنى من المعاني- إن ليفيناس ينتمي إلى ما يسمى «لاهوت موت الإله» الذي يتلخص في البحث عن منظومة معرفية وأخلاقية في عالم لا إله فيه، وإن كان ليفيناس يؤكد أن غياب الإله لا يعبر بالضرورة على أنّه غير موجود[48].

فقد ارتكزت أنساق معظم الفلاسفة السابقين على ليفيناس على تحليل الوجود الحق، فلم يقدموا فكرهم لنا وكأنّه حقيقة كشفيّة، أو أنه وحي غيبي، أو إلهامات إلهية إشراقية، بل إنهم قدموا لنا هذا الفكر على أنه نتاج تأمل عقلي وتحليل فلسفي، فاستمدت تعاليمهم صدقها من القول العقلي والخبرة الواقعية، فكان مدخلهم الفلسفي أنطولوجيا خالصا. بينما أكدَّ ليفيناس أن العلاقة بالآخر التي هي جوهر الأخلاق أكثر أهمية من العلاقة بالوجود، فليس الوجود أو الأنطولوجيا عند ليفيناس هو المسألة الأساسية، بل الأخلاق النظرية، والعلاقة بالآخرين، علاقة «الوجه- وجه»، حيث تتجلى الأخلاق في وجوه الآخرين، ومن خلال الوجه ندرك المعنى الحقيقي للإنسانية كما ندرك اللامتناهي؛ وهنا تتجاوز فينومينولوجيا الوجه البشري عند ليفيناس أنطولوجيا هيدجر المتناهية إلى إدراك اللامتناهي؛ حيث يمكن من خلال الوجه الإنساني إدراك الحضور الحقيقي لله.

أي أن ليفيناس يتجاوز الموجود المرئي(الوجه البشري) إلى ما وراءه، حيث يوجد شيء نشعر به ونحسه حين نقرؤه في هذا الوجه، وهذا الشيء هو «الله» الذي لا وجه له. فالوجود الإلهي عند ليفيناس غير مرهون بتقديم أدلة عقلية ومنطقية تثبت وجوده كما هو شائع في تاريخ الفكر الفلسفي، ولكنه أمر لا يتعلق كما يقول ليفيناس نفسه بروح فردية تستعمل أقيسة منطقية، بل هو -على العكس تمامًا- وجود غير قابل

48 عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية- نموذج تفسيري جديد، المجلد الخامس (القاهرة، دار الشروق، 1999) ص 412

للبرهنة، فوجود الله هو التاريخ المقدس ذاته، وهو تلك العلاقة المقدسة بين الإنسان والإنسان التي يمكن للإله أن يتجلى من خلالها، إن وجود الله هي قصة وحيه في التاريخ التوراتي[49].

وهنا تظهر فكرة الله كآخر، ولكنه ليس كالآخر الإنساني، بل هو آخر مجرد، بخلاف كل آخر، ولا يمكن اعتباره بأي حال من الأحوال «أول آخر» أو «آخر متميز» أو «آخر مطلق»، بلّ هو آخر سابق على كل تشبيه، ويسبق كل التزام أخلاقي تجاه الآخر الإنساني. ومع ذلك، فإن السبيل الوحيد إلى الله عند ليفيناس لا يكون إلا من خلال هذا الآخر الإنساني؛ أي من خلال مسؤوليتنا عن هذا الآخر؛ تلك المسؤولية التي تسبق القانون، والتي يمكن وصفها بأنها «وحي الله». وهنا يتحول التعالي المطلق لله إلى مسؤولية ذاتية تجاه الآخر[50].

والجدير بالذكر أن حديث ليفيناس عن الله هو دائمًا حديث حذر متوجس؛ لأنه يرى في تعاليّ الله ما يفوق قدرات العقل الإنساني، تمامًا كما كان يرى سلفه كانط. ومن ثمّ تصبح الرغبة الميتافيزيقية الحقة هي رغبة في هذا الذي يفيض، ولا يمكن أن يُحيط به العقل، والذي يفلت من نطاق المنطق لأنه خارج نطاق الفكر.

ولذلك، فإنَّ طبيعة الله وصفاته يقبلها ليفيناس على أنها ذات جذور في الديانة اليهودية. لكنَّ ليفيناس يتجاوز كون وجود الله موضوع إيمان فقط إلى إدراك الله بصورة جديدة من خلال التفكير في الآخر بعيدًا عن الأنطولوجيا؛ لأنَّ الله هو ما لا يمكن التفكير فيه من خلال الأنطولوجيا، وإنما يمكن التفكير فيه على أساس إيتيقي خالص؛ وذلك لأن الإيتيقا ليست لحظة وجود، ولكنها لحظة مغايرة أسمى -في حقيقتها- من الوجود. وعلى حد قول أحد الباحثين: «ففي الإيتيقا يغدو اللامتناهي المرغوب فيه متعاليًا عن الرغبة، ممتنعًا عن الحضور، فهو بتعبير ليفيناس (متعالٍ إلى حد الغياب). إنه من اللازم وفق هذا المنظور أن يظل المرغوب فيه أو الله منفصلًا عن الرغبة، فهو قريب لكنه مختلف. بمعنى آخر فإنه اقتراب البعد، إنَّه انفلات يلقي بأثره داخل الوصاية من أجل الغير، إنَّ الإحالة على الغير هي يقظة إزاء القرابة بما هي مسؤولية قصوى تجاه القريب»[51].

إنَّ أهمّ ما يلفت النظر في هذا التصور الليفيناسي للإله هو أنه يصرّ على أن ينأى بالله بعيدًا عن أي تصوير أو تجسيد ليحتفظ به في أقصى درجات التنزيه، فالله عنده لا يتشكل في موضوع، وليس طرفًا في

49 Richard Kearney, States of Mind, Dialogues with the Contemporary Thinkers on the European Mind, p.183.

50 Gary Gutting, French Philosophy In the Twentieth Century, Cambridge University Press, U.K, 2001, p.360.

51 عبدالعزيز بومسهولي، مقدمة ترجمته لمقال ليفيناس «التفكير في الله خارج الميتافيزيقا أو الله والأنطو-تيولوجيا»، مجلة أوراق فلسفية، القاهرة، العدد 17، 2007، ص 157

حوار، بل هو ابتعاد وتعالٍ يميل نحو المسؤولية[52]. وبما هو كذلك، فالله -كما سبق أن أشرنا- ليس «أول آخر»، ولكنه الآخر المغاير للآخر الإنساني. وبعبارة أخرى لأحد الباحثين «فإن ليفيناس يقترح علينا مفهومًا لله متحررًا عن وصاية كل ميتافيزيقا تجعل منه فزاعة لتدمير العلاقة الإيتيقية، بما هي علاقة إنسانيّة بامتياز الوصاية التيولوجية التي تستغل استحواذها على الله من أجل تكبيل وإعادة تعبيد الإنسان وفصله عن الحياة».[53]

إذن يؤسس ليفيناس ما يمكن تسميته بعلاقة «الدين الأفقي» لتحل محل «الدين الرأسي»، ليُحِلَّ علاقة الإنسان بالإنسان مَحِلّ علاقة الإنسان بالسماء، حيث يرفض تواضع التصور الإلهي الذي يُحِلّ الإلهي في الإنساني أو كما يقول ليفيناس: «فكرة إنزال الخالق إلى مستوى المخلوق، وهذا يعني وضع الأكثر نشاطًا وإيجابيّة في الأقل نشاطًا والأكثر سلبية»[54]. إذن، فهناك اختلاف جوهري يمثل حدودًا فاصلة بين الله والإنسان، ولذلك يتعذر تحول أحدهما إلى الآخر أو أن يَحِلَّ أحدهما في الآخر.

ويُصرّ ليفيناس على تصوره هذا الذي يبتعد كثيرًا عن التصور المسيحي للإلوهية، وهو يعلم مسبقًا بأنه سيتم الحكم عليه بالقصور من قِبل رجال العقيدة المسيحية.[55] لكنه يؤكد على أن تقهقر فكرة الله المتعالي إلى مستوى فكرة الإنسان هي تدنيس للإلهي أكثر ما هي تقديس للإنساني. وأن فكرة ظهور (الإنسان- الإله) الذي يشارك الناس أفراحهم وأتراحهم هي فكرة تعود إلى الأشعار الوثنيّة، وبسبب هذا الظهور فقدت الإلوهية قداستها وجلالها، وهو الأمر الذي تجلى بوضوح في إله أفلاطون الذي يجسد الفكرة اللاشخصية للخير، وفي إله أرسطو الذي هو فكر يفكر في ذاته، أو تلك الإلوهية التي لا تبال بعالم الإنسان في موسوعة هيجل، بل وربما الأمر الذي تنتهي به الفلسفة[56].

إنَّ ليفيناس يفضل البقاء في العالم بدلًا من مغادرته إلى ما وراء هذا العالم لتخيل علاقة بين الإنسان والإله، إنه يريد أن يجعل علاقة الإنسان بالإنسان هي العلاقة التي يتجلى من خلالها الإله، فالإيتيقا سابقة للدين، وشرط لوجوده وليس العكس، وهنا يبدو ليفيناس تلميذًا مخلصًا لكانط.

فإذا كان ليفيناس يرفض التجلي الحسي للإلهي، إلا أنَّه يقبل فكرة تجلى الإلهي عبر الحسي الذي هو وجه الإنسان، فهو إله يخترق المحايثة دون أن يستقر فيها. فعبر وجه الإنسان يتجلى الله ليمنع القتل، بل وليحثني على مساعدة الفقير والمحتاج، وأن أكون في عون التائب والمسكين، وأن أخاف على حياة الآخر، بل وأن أشعر بمسؤولية الأنا الكاملة عنه. ومن ثم يمثل قيامنا بتلك السلوكيات الأخلاقية تجاه الآخر هو بمثابة

52 E. Levinas, Entre-nous or Thinking- of- the- Other, P.175

53 المرجع السابق، ص 158

54 E. Levinas, Entre-nous or Thinking- of- the- Other, P.53

55 Ibid, p.54

56 Idem

عبادة وتقرّب للإله. ومن ثمّ فالإله عند ليفيناس ليس مفارقا تمامًا كما عند كانط في الإله المتعالي الذي يمثل «الشيء في ذاته»، ولا محايثا تمام المحايثة كما عند هيجل في اتحاد اللامتناهي بالروح المتناهية. أو عندما ينظر إلى المسيح بوصفه الجهد الأسمى للقضاء على علاقة السيد بالعبد، ولكنه محايث ومفارق في الآن نفسه، والمحايثة والمفارقة صفتان لازمتان للذات الإلهية عند ليفيناس؛ ومن ثم نفهم مقولته: «إن اللامتناهي يتجلى في المتناهي دون أن يتجلى له»[57].

وهكذا يقدم لنا ليفيناس تصورًا لله خارج مجال الميتافيزيقا بصورة كاملة، وفي إطار إيتيقي خالص، ومن ثم يجعل من الإيتيقا فلسفة أولى؛ أي عمل ليفيناس لتحرير «الله» جملةً من القبضة الميتافيزيقية، وفك ارتباطه بالوجود ليقرر وجوده وتجليه من خلال الإيتيقا التي قدمها كفلسفة أولى، والتي تجلى الله فيها من خلال وجه الآخر بوصفه مسؤولية إزاء الآخر.

## سادسًا - وقفة نقدية مع فكرة التجلي المقدس لوجه الآخر:

وبعد أن تبلورت «فكرة الغيرية والتجلي المقدس لوجه الآخر» بصورة شبه مكتملة في المحاور الخمسة السابقة، نرى أن هناك مجموعة من الرؤى النقدية التي يمكن توجيهها إلى رؤية ليفيناس وفكرته حول التجلي المقدس لوجه الآخر.

فإذا كان ليفيناس يريد أن يتصدى لتلك النظرة الدونيّة والاحتقاريّة للآخر من طرف الذات، وهو الأمر الذي ساد طوال التاريخ الفلسفي الغربي وظهر بقوة -على وجه الخصوص- في الفلسفة الحديثة عند توماس هوبز، وفي الفلسفة المعاصرة عند جان بول سارتر، فإنه يمكن القول إن ليفيناس وقع فيما وقع فيه أصحاب النزعة الذاتية التي جعلت الذات في مواجهة الآخر الذئب/ الجحيم؛ حيث اهتمت بالآخر على حساب الذات، فالآخر هو الآمر المسيطر والمتحكم في حين أن الأنا هي الخاضع والمستجيب، ومن ثم تتخلى الأنا عن محوريتها لتسلم مقاليد أمورها للآخر المميز المتعالي؛ فتصبح مفعولًا بها وليست فاعلا؛ ليقع بذلك ليفيناس في التطرف الذي وقع فيه أصحاب النزعات الذاتية المتمركزة حول الأنا، فإذا كانت الغيرية عند ليفيناس جاءت لتحطم انعزال الأنا إلا أنه حطم الأنا تحت سطوة الآخر.

إذا كان «الحوار» حسب فينومينولوجيا الوجه عند ليفيناس هو أهمّ عمل للوجه، بل هو الأساس لكلّ العلاقات التذاوتية بين الأنا والآخر، فإن الحوار بمعناه الحقيقي هنا لا يتم؛ فالأنا لا يتكلم بل يتلقى أوامر، والآخر لا يسمع بل يصدر الأوامر. ومن شروط الحوار الحق التفاعل بين نِدّين لا بين آمر ومأمور، فحوار الآمر بالمأمور ليس حوارًا بالمعنى الدقيق، وإنما أمر واستجابة. وهنا يفتقد الحوار الليفيناسي أهم شروط

57 Idem.

الحوار الحق، إذ إن «المتكلم الآمر الوحيد هو الآخر، أمّا الذي يبقى للأنا هو التنفيذ وتطبيق الإلزام دون مناقشة أو الانتباه للمهمة الموكلة له، وبالتالي ليس لقاء إيتيقي بقدر ما هو الضرورة والإلزام الذي يشترط التنازل عن الحرية، ... فالأجدر هو أن يتم الاعتراف والتفاهم»[58]. فلا يمكن أبدًا أن يقوم حوار صحيح بين «أنا» تامة المسؤولية والخضوع و«آخر» تام الإطلاقيّة والتعالي. فعدم التماثل في المواقف أو غياب الندّية بين أطراف الحوار يقطع حق الرعاية على حد تعبير بول ريكور: «الرعاية هي استجابة لتقدير الآخر لي، ولكن، لو لم يكن مثل هذا الرد عفويًا بطريقة أو بأخرى، فكيف لا تختزل الرعاية عندها إلى مجرد واجب كئيب»[59]. ومن ثم، فإذا كان كل التقدير للآخر عند ليفيناس، فيجب أن يكون هناك تقدير للذات عينها كآخر. وهنا تعطي «الرعاية» -عند ريكور- بوصفها تقديرا للآخر كالذات عينها، وتقدير الذات عينها كآخر معنى أفضل من «الوجه» عند ليفيناس؛ إذ تعطي الطابع التوزيعي لكل واحد، وهذا ما تفتقده فلسفة ليفيناس التي تدّعي إنها تطبق الإيتيقا والعدالة مع وجه أجنبي لا تقوم بشيء تجاهه سوى الاستماع لأوامره. إن المسؤولية هنا يجب أن تراعي أيضًا الظروف الخاصة بالذات، وأن تحيلها إلى الأمر المعقول، فمن السذاجة تطبيقها بشكل عفوي[60].

كما أنَّ فكرة التجلي المقدس لوجه الآخر قد عكست السؤال الأساسي لفلسفة الأخلاق عند ليفيناس: وهو كيف نكون مسؤولين عن الآخر مسؤولية كاملة؟ وهذا يعني اختزال واضح لفلسفة الأخلاق بمعناها الأوسع والأرحب. كما أنَّ فكرة التضحية من أجل الآخر بلا انتظار أية نتائج مرجوة من وراء تلك التضحية، فضلًا عن أن هذا الآخر غير مطالب بصورة واضحة بواجبات أخلاقية تجاه الأنا. الأمر الذي يجعل من فكرة التضحية هذه فكرة طوباوية من الصعب جدًا أن تجد لها صدى واقعيًا، الأمر الذي يجعلها -أيضًا- مجرد فكرة نظرية خالصة مملوءة بالخواء الأنطولوجي.

إنَّ تحمل المسؤوليّة تجاه الآخر على وجه العموم هي نوع من الامتياز الاعتباطي الممنوح للآخر، فكيف أتحمل واجبات أخلاقيّة تجاه الآخر دون معرفة حقيقية ودقيقة لموقفه من الذات؟ وهل يستوي موقفي من الآخر، سواء أكان على حق أو على باطل؟! سواء أكان عدوّا أو صديقًا؟ مُعِينًا أو مغتصبًا؟ يده ممدودة بالسلام أو بالغدر؟... كما أن ليفيناس يحصر بناء العلاقات الأخلاقيّة، انطلاقًا من تجربة الوجه وحدها، وهذا إن كان ممكنًا في إطار الأفراد أو في نطاق الجماعة المحدودة، فإنه يكون بلا معنى في العلاقات الدولية وتجاه الأمم وبعضها.

58 رحيم عمر، مرجع سبق ذكره، ص 105

59 بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2005)، ص 381

60 رحيم عمر، مرجع سبق ذكره، ص 106

كما يعد النقد الأكثر شيوعًا لمشروع ليفيناس الإيتيقي هو ذلك التناقض التنافري المطلق بين الغائية الإيتيقية المُثلى في سموها ونبل مقاصدها، ودفاعها المستميت عن آخرية الآخر في صيغة «حب أجنبي لأجنبي» من جهة، واتخاذ موقف عملي سياسي غاية في اللاأخلاقية من قبل ليفيناس نفسه. فقد ظل ليفيناس إلى آخر لحظة في حياته من أكثر المفكرين تنظيرا هيستيريًا متشنجًا لما يسمي بـ «لا تقايس» آلام وعذابات ومكابدات اليهود بما هم كذلك مع سائر آلام وعذابات ومكابدات سائر البشر عبر كل تاريخ البشرية. وهذا كما يقول مصطفى كمال فرحات يعني فيما يعنيه أن هناك استثناءً مطلقًا لقاعدة المسئولية المطلقة واللانهائية واللامشروطة عن الآخر، وأنَّ آخرية الآخر ليست إلا الاسم الآخر لليهود. وأن كل البشر ما عدا اليهود، إنما هم مسئولون بذلك الطراز من المسؤولية عن هذا الآخر دون أن يكون لهم أدنى حق في أن يطلبوا من هؤلاء مبادلتهم المسؤولية[61]! كيف ذلك واليهود قد احتكروا كليًا ونهائيًا «منزلة» الضحية الأزلية الأبدية، ولا يحق لأي كان أن يجادلهم في هذا الأمر، حتى عندما يكون اليهود الراهنون، في شكل صهاينة، قد مارسوا كل أشكال العدوان ضد شعب أعزل هو الشعب الفلسطيني لم تكن له أدنى مسؤولية، لا هو ولا أمته العربيّة الإسلاميّة، فيما عرفه اليهود من محارق وممارسات نبذ وإبادة في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين. ولك أن تسأل بعد ذلك عن مصير الآخر كوجه آمر بعدم القتل، وعن الاستعاضة والاصطفاء والتضحية، وعن طوباوية الإنساني وعن الحيرة من أجل الآخر والقلق على الموت الوشيك للآخر وعن «حب الأجنبي للأجنبي» بلا أي تمييز أو استثناء اللهم إلا إذا كان المقصود بكل ذلك أن ما يطلب من «الغوييم» (الأغيار) إيتيقيًا ليس نفس ما يطلب من «شعب الله المختار» بمجانية مرعبة[62].

إذن كان على ليفيناس أن يثبت عمليًا أن الآخر هو الآخر الإنساني بلا استثناءات، فكان عليه أن يتخذ موقفًا نقديًا حاسما تجاه ممارسات الإسرائيلي المحتل -الذي يتوجه له تفلسف ليفيناس- الذي يقتل الأطفال والنساء والفلسطينيين العزل وجهًا لوجه، فأين هذا الأنا المسؤولة عن حماية الآخر؟ وأين الوجه الذي يناديني دائما «لا تقتل أبدًا»؟ وأين تلك المسؤولية التي تجعل الأنا تضحي بذاتها من أجل الآخر؟ وهكذا يمكن الحديث عن مآزق حقيقية في فلسفة الوجه عند ليفيناس تتجلى أكثر كلما أمعنا في دراستها، وحاولنا الوقوف عليها وسبر أغوارها.

61 مصطفى كمال فرحات، صروف الكينونة بين ليفيناص وهيدجر، ص 150

62 المرجع نفسه.

## خاتمة (نتائج الدراسة)

إنَّ تناول موضوع «الغيرية والتجلي المقدس لوجه الآخر عند ليفيناس» قد خَلُصَ إلى مجموعات استنتاجات حسب تحليلنا الفكري لهذا الموضوع، وقد تم صياغتها كالتالي:

- حرص ليفيناس من خلال فلسفته حول فينومينولوجيا الوجه الحفاظ على إنسانيّة الإنسان كرد فعل لطغيان المنهج التجريبي في القرن العشرين ومحاولة تطبيقه على الإنسان، فكان طموح فينومينولوجيا ليفيناس بمثابة التأكيد على الجانب الحي من الإنسان، ذلك الجانب الذي يعد امتدادًا تطوريًا للفينومينولوجيا الهوسرلية من خلال محاولة إعطائها بعدًا إيتيقيا، ومساحة لتقبل الغير بعيدًا عن سجن الإنسانية في وهم الذات. لذلك استبدل ليفيناس سؤال الإنسان أو سؤال الإيتيقا بسؤال الوجود، وكان التجلي المقدس لوجه الآخر هو نقطة البدء في الإيتيقا. فاستطاع أن يولِّد من مفهومي الوجه والآخر منظومة أخلاقية كاملة تؤكد على أسبقيّة الإنسان على الوجود، والآخر على الذات، والعدالة على الحرية، والإيتيقا على الأنطولوجيا.

- بتقدّيم ليفيناس سؤال الإيتيقا على سؤال الأنطولوجيا وتأكيده على أولوية الإيتيقا على الأنطولوجيا، تناول الوجه من حيث هو مسألة إيتيقيّة خالصة بعيدة تمامًا عن كونه مسالة أنطولوجية. ونظر إلى الغير أو الآخر من خلال الإيتيقا. فكانت الغيريّة عند ليفيناس هي ما يخص الآخر ويتعلق به، أو هي الانعطاف الأخلاقي نحو الآخر، وهي احترام لوجه الآخر الذي يبدو مقدسًا من منظور إنساني محض، وأن الله يتجلى من خلال التعامل الإنساني عبر الوجه وليس فيه، لأن تجلى الإلهي من خلال الإنساني أو ما يمكن أن نطلق عليه حلول اللاهوت في الناسوت، وهو أمر مرفوض عند ليفيناس بل هو تدنيس للمقدس لا يبرح أرض الفكر الوثني الذي يجعل من الإنسان إلهًا ناقصًا كما في الأساطير اليونانية وغيرها من أساطير الشعوب المختلفة. لذلك يرى ليفيناس ضرورة فتح قنوات الحوار مع الغير المخالف للأنا، للخروج من سجن الأنا إلى متسع رحابة الآخر، شريطة ألا يحاول أحد الإطاحة بالغير نتيجة لوعي يقدس الظهور المقدس لإنسانية الآخر التي تبدو في سيمياء وجهه، بل يبالغ ليفيناس في الغيرية فيرى ضرورة أن يأتي قلق الإنسان بالآخر قبل الانشغال بالذات، فيقدم الآخر على الذات، ويُصبح الحفاظ على حياة الآخر الهاجس الذي يؤرق الذات ويقلق مضجعها، بل ويجعل الإنساني هو الموت من أجل الآخر الذي يشكل معنى الحب في مسئولية الذات عن الغير؛ ذلك المحبوب الذي نحبه بلا شبق، فيصبح القلق بشأن حياته قلق قداسة، ذلك القلق حول الأنا المسئول عن الآخر الذي يستدعيه ظهور الوجه كتجلي مقدس، تلك القداسة الكامنة في الإحسان إلى الغير والرحمة به، لا من أجل الحياة الأخروية، إنما من أجل الإنسان وحياته التي هي أكثر قداسة من كافة المقدسات.

- إنَّ التجلي المقدس لوجه الآخر يعكس انتصار الإيتيقا على الأنطولوجيا مع ليفيناس؛ على عكس تلك الأولوية المعطاة للأنطولوجيا في التراث الفلسفي الغربي. فإذا كانت الأنطولوجيا تعني وجود الأنا في مقابل

الآخر، والتمركز حول الذات في مواجهة الآخر، فعندما يكون الهم الوحيد للإنسان أن يستمر في الوجود، فإنَّ ذلك يجعله دائمًا في حالة عداء وصراع مع الآخر، ومن ثمَّ تكون النتيجة الأساسية لأولوية الأنطولوجيا هي سيادة فلسفة القوة والتسلط والاحتلال والعنف والحرب، وهو ما نجده على طول التاريخ الفلسفي الغربي. أمَّا إعطاء الأولوية للإيتيقا، فإنها تعني الخروج من التمركز حول الذات لإقامة علاقة قبول وحوار وتسامح مع الآخر للعيش سويًا، بل تتعدى ذلك لتتحمل الذات المسئولية تجاه الآخر، تلك المسئولية التي لا يمكن الهروب منها أو استبدالها أو التنصل منها أو الاستعاضة عنها بأي شيء آخر أبدًا، حيث يصبح مستقبل الآخر مسؤولية شخصية. إنَّ التجليّ المقدس للوجه ينعكس بصورة أكثر وضوحًا مع المنهجية الفينومينولوجية التي تطورت مع ليفيناس، حيث حاولت أن تنفذ إلى ما وراء ظاهر الوجه وتعطيه أبعادًا وإمكانات جديدة من خلال البحث عن المعاني المخفية المخبوءة، ومحاولة إخراج ما هو مجهول للنور، معبرة عن وحي وبوح، وكشف وإظهار، ورفع حجاب، وإماطة لثام. فقد عَكَسَ ذلك التجلي المقدس رؤية ليفيناس الخاصة جدًا للوجه، حيث إنه قد جعل من الوجه قداسة أكثر من المقدس ذاته، وسعى من منظور فينومينولوجي خالص إلى جعل الوجه أساس كل علاقة إنسانية ممكنة، وأن عري وجه الآخر أمامي بلا سلاح أو قناع هو دليل سلم ورغبة في التلاقي، ومن ثم يصبح تغطية الوجه أو التقنع هو رفض لكل علاقة أخلاقية أو إنسانية مع الآخر، ليس هذا فحسب ولكنه أيضًا رفض لكافة صور الضيافة وإيذانًا بالحرب والحساسية المتنافرة.

- استبدل ليفيناس من خلال فكرة التجلي المقدس للوجه الإيتيقا بالدين، وتخلى عن دروب التخلق كما وردت في الأدبيات اليهودية، حيث جعل الأولوية للتوجه نحو الغير على حساب التوجه إلى الإله، فحماية الآخر والمسئولية تجاهه لها الأسبقية على التعبد الإلهي كما جاء في التوراة، وكل ما تقتضيه الأخلاق هو حضور الآخر بوجهه. ومع ذلك، يعكس التجلي المقدس للوجه بقاء الوجه مفتوحًا على الإله، وأن الانفتاح على وجه الآخر هو انفتاح على الإله في الوقت ذاته، فالمقدس يتجلى بالسؤال عن إنسانية الآخر.

- تتبنى الإيتيقا عند ليفيناس التضحية من أجل الآخر، فتطرح الذات نفسها من أجل الآخر بدلًا من أجل نفسها، ويتبلور الظهور المقدس للوجه في دعوته الإيتيقية في عدم ترك الآخر وحيدًا أمام الموت، لتبدو الإيتيقا كنقيض للعنف وتحريم أي فعل عنيف من الممكن أن يودي بحياة الآخر، فالذات دائما يمتلكها الخوف على الغير، وأن موت الغير يعنيني أكثر مما يعنيه نظرًا للمسؤولية الملقاة على عاتقي، والمسؤولية تجاه الآخر تعني استحالة ترك هذا الآخر وحيدًا أمام الموت، فالخوف من الموت -عند ليفيناس- هو خوف من أجل الغير وليس من أجلي، ومن ثم يتضح الفرق بين تحليل ليفيناس الأخلاقي للموت وتحليل هيدجر الأنطولوجي، ففي الوقت الذي يرى فيه هيدجر أن الموت هو موتي، يرى ليفيناس أن الموت هو موت الآخر، وهذا ما يعنيه ليفيناس بالموت من أجل الآخر أو الانعطاف الأنطولوجي نحو الأخلاق.

- الأخلاق عند ليفيناس ليست مبحثًا أساسيًا من مباحث الفلسفة كما يفترض ذلك التقسيم الكلاسيكي لمباحث الفلسفة، وإنما هي الفلسفة الأولى، على خلاف ما يفترضه تاريخ الفلسفة من النظر إلى الإبستمولوجيا أو الميتافيزيقا على أنها الفلسفة الأولى. فكل المواقف في الفلسفة لدى ليفيناس تعتمد مقدمًا على الأخلاق؛ لذلك وصفها ليفيناس بأنها الفلسفة الأولى التي قدَّمها على الأنطولوجيا المعاصرة التي تختزل الآخر وتضعه ضمن مقولات الوجود، وذلك ليجعل من الإيتيقا المسئولية الشاملة تجاه الغير، ولذلك أطلق ليفيناس على وضع عفوية الأنا كموضع سؤال أمام حضور الغير إيتيقا، بل إن ليفيناس قدَّم الإيتيقا على الدين واستبدلها به، فلم يجعل ليفيناس التعاليم التلمودية مصدرًا للأخلاق، لأن التجلي المقدس لوجه الآخر هو مصدر كل فعل أخلاقي لا المقدس الديني التوراتي أو التلمودي.

- رفض ليفيناس في تصوره لله التصور المسيحي لله الذي يؤمن بحلول اللاهوت في الناسوت؛ واعتبر أن فكرة ظهور (الإنسان/ الإله) الذي يشارك الناس أفراحهم وأتراحهم هي فكرة تعود إلى العصور الوثنية، وهو الأمر الذي أفقد الإلوهية قداستها وجلالها. كما اتضح إصرار ليفيناس على أن ينأى بالله بعيدًا عن أي تصور أو تجسيد ليحتفظ به في أقوى درجات التنزيه. لكن تناول الله من خلال الإيتيقا كفلسفة أولى جعلت ليفيناس يبدو من أنصار "لاهوت موت الإله" الذي ينشد قيام منظومة أخلاقية متكاملة في عالم لا إله فيه، والذي يستبعد انتظار الإنسان لنتائج أفعاله الأخلاقية، فعليه أن يعمل دون أن ينتظر دخول "أرض الميعاد".

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر

1. E. Levinas, Time and the Other [And additional essays], translated by Richard Cohen, Duquesne University Press, USA, 1978.
2. E. Levinas, Totality and Infinity- an essay on Exteriority, trans. By Alphonso Lingis ,the Hague Martinus Nijhoff, U.S.A, 1979.
3. E. Levinas, Ethics and Infinity conversation with Philippe Nemo- trans. By Richard Cohen, Duquesne University press, Pittsburg Pa, 1985.
4. E. Levinas, Difficult Freedom, Essays on Judaism, trans. By Sean Hand, the Johns Hopkins university press, Paltimore, 1997.
5. E. Levinas, Entre-nous or thinking- of- the- other, translated from the French by Michael B. Smith and Barbara Harshay, Columbia university Press, New York, 1998.

### ثانيًا: المراجع العربية

1. أحمد إبراهيم، ايمانويل ليفيناس وفلسفة الآخر، مجلة أوراق فلسفية، القاهرة، العدد(33)، 2012
2. بلعز نور الدين: الوجه والإنسانية في الفلسفة الليفيناسية، مجلة أوراق فلسفية، العدد 13، 2004
3. بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي بيروت، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2005
4. جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة الأب مارون خوري المخلصي، الطبعة الرابعة، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، 1988
5. رحيم عمر، فينومينولوجيا الوجه والإيروس عند ايمانويل ليفيناس، رسالة ماجستير غير منشورة، شعبة الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان - الجزائر، 2015-2016
6. زهير الخويلدي، معان فلسفية، الطبعة الأولى دار الفرقد، دمشق، 2009
7. عبدالعزيز بومسهولي، مقدمة ترجمته لمقال ليفيناس «التفكير في الله خارج الميتافيزيقا أو الله والأنطو-تيولوجيا»، مجلة أوراق فلسفية، القاهرة، العدد 17، 2007
8. عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية - نموذج تفسيري جديد، المجلد الخامس، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1999
9. مصطفى كمال فرحات، صروف الكينونة بين ليفيناص وهيدغير - حرب الإيطيقا ضدّ الأنطولوجيا، مجلة أوراق فلسفية، العدد (17)، القاهرة، 2007

**ثالثًا: المراجع الأجنبية**

1. Gutting, G., French Philosophy In the Twentieth Century, Cambridge University Press, U.K, 2001.

2. Kearney, R., States of Mind, Dialogues with the Contemporary Thinkers on the European Mind, Manchester University press, 1995.

3. Linges, A., Translator's Introduction in collected philosophical papers: Emmanuel Levinas (translated by Aphonso Lingis) Duquesne University press, Pittsburg Pa, 1998.

**رابعًا: المواقع الإلكترونية**

1. زهير الخويلدي، الأنا وجها لوجه مع الآخر أو ليفيناس فيلسوف الغيرية، على الموقع التالي:

http://alhiwartoday.net/node/6258

2. عصام عبدالله، لا تقتل، على الرابط الإلكتروني التالي:

http://www.copticassembly.org/showart.php?main_id=111

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018